المواهبيّة والمنظّمات!

"ثمّ إنّي بعد ثلاث سنين صعدتُ إلى أورشليم لأزور بطرس"

لا شكّ أن يسوع، خلال بشارته ثلاث سنوات، سعى إلى تأسيس كنيسة منظّمة، فاختار رسلاً اثنَي عشر وسواهم سبعين، وكان يرسلهم أمامه ويطلب بواسطتهم من الشعب، كما في عجيبة تكثير الخبز والسمك. ثمّ أخيراً أعطاهم سلطاناً لمغفرة الخطايا، "فمَن حلّوا خطاياه تُغفر له ومَن أمسكوها عليه تُمسك" (يو ٢٠، ٢٣). وهل من سلطان أكبر من هذا؟ يقول بولس الرسول. إن كان لنا عليكم سلطان في الروحيّات فكم بالحريّ نملك (نحن الرسل) سلطاناً عليكم بالماديّات! لذلك السلطة الروحيّة في الكنيسة، بنظرنا، هي أسمى بكثير من السلطات المدنيّة. لقد عاركت الكنيسة في التاريخ العالَم الخارجيّ والعالَم الداخليّ لتنظّم ذاتها بشكل إداريّ وقانونيّ يحفظ مسيرتها من النزوات البشريّة، ويجعلها تعبّر دائماً وفي كلّ شيء عن رسالتها، ويسهّل لها تحقيق عملها في العالم.

هكذا، تعرّضت "مؤسّسة الرسل الاثنَي عشر" - إذا سمح التعبير للإيضاح - تعرّضتْ إلى هزّة عنيفة بظهور بولس الرسول. لم يكن بولس من "الشهود العيان" ولا حتّى من السبعين، لا بل كان مضّطهداً للمسيحيّين! فكيف يُبشّر الآن وبأيّ سلطان يتكلّم؟ أو بكلمة أخرى: من أين لهذا الإنسان، وإن آمن الآن، أن يدخل إلى "عضويّة المسؤولين" في الكنيسة، فيعلّم بسلطانهم؟

نعم، لا تستطيع الكنيسة القيام بدورها، في العالم الواسع المتعدّد الإثنيّات واللّغات والمترامي الأطراف جغرافيّاً، دون تنظيم. ولا يستطيع المؤمنون، في مواقع مسؤوليّاتهم المختلفة - أي خدمتهم، أن يؤدّوا عملهم بتنسيق وتناغم وفرح مشترك دون التنظيم.

لكن بالواقع هناك مخاطر عديدة، حين تتطّرف إمّا الصيغ المؤسّساتيّة الجماعيّة أو المواهب الفرديّة. هناك حسنات وهناك مخاطر لكلّ من المؤسّساتيّة والمواهبيّة في الكنيسة. ولا شيء من الحلَّين صالح بحدّ ذاته، إلاّ بمقدار ما يؤدّي لخدمة الروح. فما هي حسنات وما هي مخاطر كلّ من هذَين الشكلَين، وكيف يعملان معاً إذن؟

تتعرّض كلٌّ من المؤسّسة والموهبة في الكنيسة لثلاثة مخاطر. الخطر الأوّل هو "الجمود"، والثاني "التقوقع"، والثالث هو "التسلّط". بينما مخاطر المواهبيّات الفرديّة هي، أوّلاً "البدع"، وثانياً "الشيَع"، وثالثاً "الفوضى".

حين تنظّم المؤسّسة ذاتها، وكذلك الكنيسة، تلجأ بالطبع للتشريع. ولكن القانون هو تفسير لطريقة الشهادة في لحظة معيّنة من الزمن وفي مكان محدّد من العالم. القوانين ليست العقيدة بل التفسير لها. والخوف هو أن نجعل القانون، أي التشريع المحدّد، من الغيرة الزائدة أحياناً، عقيدةً. ونتفاجأ يوماً، بعد فترة تبدّلتْ معها الظروفُ الزمنيّة أو المكانيّة، أنّ هذا القانون ذاته باتَ يسيءُ إلى عقيدته. فالتشريع ليس من الثوابت كالعقيدة وإنّما من المتبدّلات. حين يصير التشريع فوق غايته نقع في "الجمود"، ونخضع لشرائع أو عادات أو اعتبارات وأنظمة تقتل الروح الذي كان علينا أن ننهله من حفظ تلك الشريعة. لقد عاتبَ ووبّخَ يسوعُ اليهودَ الذين "جمدوا" عند الشرائع، فصارت شرائعهم لخدمتهم بينما قتلت "شريعة الله الحقيقيّة". يجب ألاّ ينقلب الدِّين إلى "قوالب"، لا نفكر بتقييمها لأنّنا نظنّها "الجوهر" في الدِّين، بينما ما هي إلاّ "التعابير" عنه. وهذه التعابير يجب أن تختلف مع اختلاف مَن تخاطبه.

أمّا المواهبيّون، الذين يشجّعُ أحياناً جمودُ المؤسّساتِ حماسَهم ونظريّاتهم، فإنّهم إذا ما تطرّفوا ورفضوا الوجه المؤسّساتي، لنعتهم إيّاه بالجمود، يخرجون من الطرف الآخر عن الطريق القويمة، عندما يصلون ليس إلى "ما هو أكثر" بل إلى "ما هو آخر" في التعليم والحياة. عندما يتوقّف المواهبيّون في نظرهم على المظهر الخارجيّ الجامد من المؤسّسة، ويجهلون أنّه دخيل عليها وليس أصلَها، فإنّهم يرفضون شيئاً مفيداً وجوهريّاً لو أُصلِح. عندما ينخدع المواهبيّ، مغترّاً بالموهبة، ويتناسى ضرورة الأصول حينها يبني ليس على الأساس الوحيد (يسوع المسيح). ويقود تجاهل الأساس إلى البِدع بدل الإبداع. فإذا كانت الأمانة للإيمان تقتضي التجديد، فهذا لا يعني هدمَ الأساس وإنّما نزع ما هو غير نافع عنه. يمكننا أن نجدّد التقاليد دون أن نخرج من وديعة "التقليد".

والتجربة الثانية هي، أن يُعجَب الناس في منظّماتنا وأخويّاتنا ومجالسنا الكنسيّة بالانجازات أو بحرارة الروابط التي تُبنى بينهم، ويرضون أن "ينعموا بالنعمة" التي ذاقوها في الكنيسة وحدهم،

فيريدون، عن معرفة أو عدم معرفة، بوعي أو باللاوعي، أن يحتكروا هذه الحياة الكنسيّة لذاتهم، وهكذا يفسدوها. لأنّ أجمل ما في التنظيم والانتماء الكنسيّ هو "التقليد" أي استلام "الرسالة" والانطلاق بها لكلّ آخر، وإخبارَه أنّنا لبَّيْنا الدعوة فوجدنا أنفسنا: "تعالَ وانظرْ". يترصّدنا الخطر في كلّ تنظيماتنا أن نتقوقع. أن نستصعب عِشْرة من نراه "غريباً عنا"، إن كان بمقدار معرفته أو بمقدار اهتمامه بالشؤون الكنسيّة... وهكذا دون أن ندري تصير المنظمات شَلَلِيّةً ونُدخل إلى جسم الكنيسة البشاري عتاقة الخطيئة، فنسخّر الرابط لرغباتنا وأنانيّتنا بدل أن نبذل ذاتنا من أجل روح تنظيماتنا. فالأخويّة أو المجلس... الذي يبقى لسنوات هو هو، قد ينقص ولكنّه لا يستقطب جديداً، عليه أن يمتحن ويفحص ذاته لعلّه يعاني من الانغلاق أو القوقعة.

أمّا المواهبيّ الذي يدين بعض الشلل، أو يتعالى على الثوابت الوسط والمعتدلة التي ترافق حياة الشركة والعمل الجماعيّ اللذان لا يحتملان المبالغات حتّى الصالح منها، فإنّه يميل على الفور إلى الابتعاد وإلى بداية تكوين "شلّته الجديدة" أي التشيّع. وترانا أحياناً في الكنيسة نعاني من التحزّبات والتفرّعات والاختلافات ما نحن بغنى عنها. حين يعاني مواهبيٌّ من انغلاق منظّمة ما على نفسها عليه ألاّ يعالج الشرّ بما هو أشرّ. إذا كان تقوقع بعض الناس في منظّمات ما يمنع استقطاب مواهب جديدة أو مغايرة قليلاً، فهذا يجب ألاّ يقود إلى شيع جديدة بل يحتاج لحوار حرّ وصريح تفرضه الرسالة الكنسيّة.

أمّا التجربة الثالثة فهي أن تنقلب روح المسؤوليّة في المنظّمات من الخدمة إلى التسلّط. السلطة أمرٌ مهمّ كما هي الطاعة. ولكن السيّد علمنا أن يغسل الأوّل أرجل الأخيرين. وميّز الربّ يسوع بوضوح بين نموذج السلطة عند الأمم وبينه في الكنيسة، وقال لا يكن بينكم هكذا (لو ٢٢، ٢٦). لا يحفظ التوازن بين السلطة الحقيقيّة والطاعة الحرّة الكاملة إلاّ "المحبّة". المحبّة التي لا تطلب في السلطان "ما لذاتها" بل تبذل من المسؤوليّة ذاتها. إذا صارت السلطةُ شهوةً، أي تسلّطاً، عندها تُسيطر على حياة مجالسنا ومنظّماتنا التحزّباتُ والانتخابات والشلليّة. بينما عرفنا في الكنيسة أنّ الرسل قديماً "رموا القرعة" واختاروا... أي أنّ المسؤوليّة فُرضت على أحدهم باسم الجميع. العيب ليس في التنظيم والسلطة، وإنّما في التسلّط، عندما يزيّفُ الرياءُ البشريّ التنظيمَ الروحيّ.

وهنا قد يظهر بعضُ المواهبيّين، الذين ربّما أهملتهم أعين المتسلّطين غيرةً أو تجاهلاً، فيرفضون كلّ التنظيم ويعتقدون أنّ ما لهم من هبة - موهبة يعطيهم السلطانَ من خارج المنظّمة على العمل والخدمة والتعليم دون الرجوع إلى الآخرين. وهل هناك إنسانٌ حمل مواهبَ وقدّم أتعاباً بمقدار بولس

الرسول؟ لقد رأى بولسُ الربَّ، وسمع منه مباشرة كلماتٍ لا يجوز لإنسان سماعُها، وصعد للسماء الثالثة، وكان أكثر من الرسل في الأتعاب، ومع ذلك كلِّه عندما أراد أن ينطلق بشكل قويّ في البشارة اتَّجَهَ أوّلاً من العربيّة (قرب دمشق) إلى أورشليم ليرى بطرسَ هامَة الرسل.

يمثّل بولس المواهبيّة في حدّها الأقصى والأمثل أيضاً. ويمثّل بطرسُ منظّمة الكنيسة آنذاك. ويعلّمنا توجّه بولس نحو بطرس قبل رسالته الحلَّ الأمثل لعلاقة الموهبة بالتنظيم. لم يكن بولس بحاجة لتعلّم شيء من بطرس، لكنّه أراد أن يعمل بمواهبه الجديدة مع الجسم الذي أسّسه الربّ قبلَه. إنّ الوحدة في الكنيسة ليس أمراً ثانويّاً، بل هي أمرٌ أساسيّ جدّاً، لا بل الأهمّ. مَن لا يستطيع أو لا يريد أن يعمل "مع" الكنيسة لا يفيده ولا يفيدنا أن يعمل ولا حتّى كثيراً "للـ" كنيسة.

ولكن لننظرْ إلى الروح في التنظيم، وذلك في حدث هامّ يردُ ذكره في أعمال الرسل. لقد وقف يوماً بولس (الجديد العهد بين الرسل) أمام بطرس الهامَة وعاتبه لأنّه كان يجامل اليهود على حساب الإيمان. فالخضوع للتنظيم لا يعني الخنوع، وموهبة الروح لا تعني الانشقاق، ما دام الدّاعي لهما هو المحبّة! المواهبيّة تُحيي التنظيمات، والمنظّمات تحفظ المواهب. التنظيم لخدمة الروح، والروح لإحياء التنظيم وتجديده.

الروح يدعونا للتوبة. إنّ كرازة يسوع كلّها تلخّصتْ بكلمة "توبوا" قد اقترب ملكوت السموات، هذا ما يقوله الروح للكنائس، وهذا هو الضوء الذي يَمتحن ويكشفُ تلازمَ التنظيم مع الروح أو انفصالَهما. إنّ غاية كلّ منظّماتنا ومجالسنا هي الوصول إلى حياة التوبة، وهناك يعمل الروح. والخطر أن تصير مثلاً مدارس الأحد عندنا مدارسَ! أو يغدو الكشّاف فرقةً نحاسيّة! أو تظهر أخويّاتنا مجرّد نشاط اجتماعيّ! وإذا ما أشرنا إلى هذه المخاوف لا يعني أنّنا خائفون، وإنّما يعني أنّنا نريد أن نكون دائماً يقظين.

وجهك يا ربّ أنا ألتمس. هكذا تنادي كلٌّ من العروس والروح: "تعال أيّها الربّ يسوع". هذا الصراخ يجب أن نتعلّمه ونعلّمه ونحياه في كلّ مجالسنا ومنظّماتنا. رجاؤنا، أن تصير كلّ المجالس والهيئات والمنظّمات أعضاءَ حيّةً تبثُّ الروح والتوبة في جسم الكنيسة كلّها، بروح من الوحدة وغنى المواهب، فتفرز لله شعباً حيّاً وأمّة مقدّسة مكرَّسة. هذا هو معيار نجاح منظّماتنا، مقدار ما يفرز الروح بواسطتها ومنها مكرَّسين ومسحاء للربّ، آمين.